مَعَالِمُ فِي السَّيْرِ إِلَى اللهِ

تأليف

الشيخ صالح بن محمد الأسمري

أضواء السلف


معالم في السير إلى الله





تأليف

الشيخ صالح بن محمد الأسمري

أضواء السلف



الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

مكتبة أضواء السلف - لصاحبها علي الحربي

الرياض - ص.ب ١٢١٨٩٢ - الرمز ١١٧١١ ت ٢٣٢١٠٤٥ - جوال ٠٥٥٤٩٤٣٨٥

تطلب منشوراتنا من :

مكتبة الإمام البخاري - مصر - الإسماعيلية - ت ٣٤٣٧٤٢ / ٠٦٤

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فهذه كلمات مختصرة في السير إلى الله، والطريق إليه، يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله:

(الطريق إلى الله: هو سلوك صراطه المستقيم؛ الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه، وأمر الخلق كلهم بسلوكه والسير فيه)[1].

---

(١) «المحجة في سير الدلجة»: ص١٣٥.

ولا ريب (أن جَمْعَ القلب على الله تعالى، وعلى مراده منَّا، ونسيان ما سوى ذلك: هو مراد الأنبياء والأولياء)[١]، وتحصيل تلك الجَمْعيّة ليس سهلاً؛ إذ إنه من جنس تزكية النفوس، (وتزكية النفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشدّ)[٢].

وتلك الكلمات المختصرة تتعلّق بعلامات الطريق وآفاته، يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفوائد»: (طالب النُّفُوذ إلى الله والدار الآخرة ... يَحتاج أن يكون عارفًا بطريق الوصول إليه، والطُّرُق القواطع عنه).

وجملة ما في هذه الورقات مَحْض نَقْلٍ عن سلفنا الصالح يرحمهم الله؛ ليس لنا فيها سوى الاستخراج والتأليف، والترتيب والتَّرْصِيف.

والله أسأل توفيقًا قائدًا إلى الرُّشْد، وقلبًا مُتَقَلِّبًا مع الحق، ولسانًا ناطقًا بالحُجَّة، والله المستعان، وعليه التُّكْلان.

* * *

(١) «الأمر بالعزلة» لابن الوزير: ص٥٣.

(٢) «إغاثة اللهفان» لابن القيم: (١/ ٧٧).

الفصل الأول

في علامات الطريق

ثمَّ علائمُ للسيرِ كثيرة، ولكن لها قواعد جامِعة:

* القاعدة الأولى:

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]:

(العبد من حينئذ استقرت قدمه في هذه الدار؛ فهو مسافر فيها إلى ربه، ومُدَّة سفره هي عمره الذي كُتِب له.

فالعمر هو مُدَّة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يَطْوِيها مرحلة بعد مرحلة حتى يَنْتَهِي السفر.

فالكَيِّس الفَطِن هو الذي يجعل كل مرحلة نُصْب عينيه؛ فيهتم بقطعها سالمًا غانمًا، فإذا قطعها جعل الأخرى نُصْب عينيه، ولا يطول عليه الأمد؛ فيقسو قلبه، ويمتد أمله، ويحصر بالتسويف والوعد والتأخير والمَطْل.

---

(١) «طريق الهجرتين، وباب السعادتين»: ص١٧٦ ـ ١٧٧.

بل يَعُدُّ عمره تلك المرحلة الواحدة؛ فيجتهد في قطعها بخير ما بِحَضْرَتِهِ، فإنه إذا تَيَقَّن قِصَرَها وسرعة انقضائها؛ هان عليه العمل، فَطَوَّعَتْ له نفسه الانقياد إلى التَّزَوُّد، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك، فلا يزال هذا دَأْبَهُ حتى يَطْوِي مراحل عمره كلها؛ فَيَحْمَد سعيه، ويَبْتَهِج بما أَعَدَّه ليوم فاقته وحاجته، فإذا طلع صبح الآخرة، وانقشع ظلام الدنيا؛ فحينئذ يَحْمَد سُرَاه، ويَنْجَاب عنه كُرَاه، فما أحسن ما يَسْتَقْبِل يومه، وقد لاح صباحه، واسْتَبَان فلاحه.

ثم الناس في قطع هذه المراحل قسمان:

● فقِسْمٌ قطعوها - مسافرين فيها - إلى دار الشقاء، فكلما قطعوا منها مرحلة قَرُبُوا من تلك الدار وبَعُدُوا عن ربهم وعن دار كرامته، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب، ومعاداته، ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره وإبطال دعوته وإقامة دعوة غيرها.

فهؤلاء جُعِلَتْ أيامهم يسافرون فيها إلى الدار التي خُلِقُوا لها، واستُعْمِلُوا بها، فهم مَصْحُوبُوْن فيها بالشياطين المُوْكَلَة بهم، يسوقونهم إلى منازلهم سَوْقًا، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]، أي: تُزعجهم إلى المعاصي والكفر إزعاجًا، وتسوقهم سوقًا.

● القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام، وهم ثلاثة أقسام:

- ظالم لنفسه.
- ومقتصد.
- وسابق بالخيرات بإذن الله.

وهؤلاء كلهم مُسْتَعِدُّون للسير، موقنون بالرُّجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزوُّد وتعبئة الزادِ واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبُطْئه).

* القاعدة الثانية:

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ (١):

(السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مَقْصَد، لا يَتِمُّ سَيْرُهُ ولا يَصِلُ إلى مقصوده إلا بقوتين:

- قوة علمية.
- وقوة عملية.

● فبالقوة العلمية يُبْصِر منازل الطريق، ومواضع السلوك؛ فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك، ومواضع العَطَب، وطرق المهالك المُنْحَرِفة عن الطريق المُوْصِل.

---

(١) «طريق الهجرتين، وباب السعادتين»: ص١٧٤ ـ ١٧٥.

فَقُوَّتُه العلمية كنُورٍ عظيم بيده؛ يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يُبْصِر بذلك النور ما يقع الماشي في الظُّلْمَة في مثله؛ من الوِهَادِ والمَتَالِف، وما يَعْثر به؛ من الأحجار والشوك وغيره، ويُبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: (أعلام الطريق)، (ومعاطبها).

● وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها، وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها؛ فقد حصل له شطر السعادة والفلاح وبقي عليه الشطر الآخر؛ وهو: أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق؛ قاطعًا منازلها، منزلة بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعدَّ لقطع الأخرى واستشعر القُرْب من المنزل؛ فهانت عليه مشقة السفر.

وكلما سَكَنَتْ نفسه من كَلَال السير، ومواصلة الشدِّ والرَّحيل؛ وَعَدَها قُرْب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيُحْدِث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهِمَّة.

وَلْيَجْعل حديث الأحبة حاديها وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها، وصدق وِدَادِهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها.

ولا يُوْحِشُه انفراده في طريق سفره، ولا يغترّ بكثرة المنقطعين؛ فألم انقطاعه وبُعَادِه واصل إليه دونهم، وحَظُّه من القُرْب والكرامة مختص به دونهم، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم.

وليُعْلَم أن هذه الوحشة لا تدوم بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه المتلقون يُهَنِّئُوْنَه بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرة عينه إذ ذاك، ويا فرحته إذ يقول: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧].

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع، وذَوب النفس، وبطء سيرها، فكلما أدمن على السير، وواظب عليه؛ غدوًا ورواحًا وسَحَرًا؛ قَرُبَ من الدار، وتَلَطَّفَتْ تلك الكثافة، وذَابَتْ تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم؛ فتبدَّلت وحشته أنسًا، وكثافته لطافة، ودَرَنه طهارة).

* القاعدة الثالثة:

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [1]:

(اعلم أن كل حي سوى الله فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره.

---

(١) «طريق الهجرتين، وباب السعادتين»: ص٥٣، وبنحوه في: «إغاثة اللهفان»: (١/ ٤١ - ٤٢).

والمنفعة للحي من جنس النعيم، واللذة، والمضرة من جنس الألم والعذاب، فلابد من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب؛ الذي يُنتَفَع به، ويُتَلَذَّذُ به.

والثاني: هو المُعِين المُوْصِل، المحصِّل لذلك المقصود؛ والمانِع لحصول المكروه، والدافع له بعد وقوعه.

فهاهنا أربعة أشياء:

- أمر محبوب مطلوب الوجود.
- والثاني: أمر مكروه مطلوب العدم.
- والثالث: الوسيلة إلى حصول المحبوب.
- والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حي سوى الله، لا يقوم صلاحه إلا بها.

إذا عُرِف هذا؛ فالله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له، وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه، فلا معبود سواه، ولا معين على المطلوب غيره، وما سواه هو المكروه والمطلوب بُعْدُه، وهو المعِين على دفعه، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه).

* **القاعدة الرابعة:**

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ [١]: (قاعدة في ذكر طريق قريب يُوْصِل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال؛ وهي شيئان:

أحدهما: حراسة الخواطر وحفظها، والحذر من إهمالها والاسترسال معها؛ فإن أصل الفساد كله مِن قِبَلِها يَجِيء؛ لأنها هي بِذَر الشيطان، والنفس في أرض القلب، فإذا تَمَكَّن بَذْرُها تعاهدها الشيطان بِسَقْيه مرة بعد أخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال.

ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزًا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المُفَرّط إذا لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس؛ فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها.

فإن قلت: فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟

قلت: أسباب عدة:

أحدها: العلم الجازم بإطلاع الرب سبحانه، ونظره إلى قلبك، وعلمه بتفصيل خواطرك.

---

(١) «طريق الهجرتين، وباب السعادتين»: ص١٦٦ ـ ١٦٨.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خُلِق لمعرفته ومحبته.

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارك له أن تساكن قلبك غيرُ محبته.

السادس: خشيتك أن تَتَوَلَّد تلك الخواطر ويَسْتَعِر شرارها فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله فتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحَبّ الذي يُلْقى للطائر ليصاد به، فاعلم أن كل خاطرٍ منها فهو حبة في فَخٍّ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلاً، بل هي ضدها من كل وجه، وما اجتمعا في قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه، فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها واستوطنت مكانها، لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحسَّ بمُصَابه.

التاسع: أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غَرِق فيه وتاه في ظلماته

فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلاً، بقلب تَمَلَّكُه الخواطر بعيد من الفلاح، مُعَذَّب مشغول بما لا يفيد.

العاشر: أن تلك الخواطر هي وادي الحَمْقَى وأماني الجاهلين، فلا تُثْمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس، وعزلته عن سلطانها، وأَفْسَدَتْ عليه رعيته، وألقته في الأَسْر الطويل.

وكما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير كله.

فإن أرض القلب إذا بُذِر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسُقِيَتْ مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كل فعل جميل، وملأَتْ قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات، واستقر بها المَلِكُ في سلطانه، واستقامَتْ له رعيته.

ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك؛ عملتْ على حفظ الخواطر فكان ذلك هو سيرها، وجلّ عملها. وهذا نافع لصاحبه بشرطين:

أحدهما: أن لا يترك به واجبًا ولا سنة.

الثاني: أن لا يجعل مُجَرَّد حِفظها هو المقصود، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والمحبة والإنابة والتوكل

والخشية، فيُفَرّغ قلبه من تلك الخواطر ويعمره بأضدادها، وإلا فمتى عمل على تفريغه منهما معًا كان خاسرًا، فلابد من التَّفَطُّن لهذا.

ومن هنا غلط أقوام من أرباب السلوك وعملوا على إلقاء الخواطر وإزالتها جملة، فَبَذَرَ فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات؛ فظنوها تحقيقًا وفتحًا رحمانيًا، وهم فيها غالطون، وإنما هي خيالات شيطانية، والميزان هو الكتاب الناطق، والفطرة السليمة، والعقل المؤيد بنور النبوة، والله المستعان.

الثاني: صدق التَّأَهُّب للقاء الله ... فإن مَن استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخَمَدَتْ من نفسه نيران الشهوات، وأَخْبَتَ قلبه إلى الله، وعَكَفَتْ همته على الله؛ وعلى محبته وإيثار مرضاته، واسْتَحْدَثَتْ همة أخرى وعلومًا أُخَر، وولد ولادة أخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أن كان في بطن أُمه، فيولد قلبه ولادة حقيقة، كما ولد جسمه حقيقة، وكما كان بطن أمه حجابًا لجسمه عن هذه الدار فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسه بارزًا إلى الدار الآخرة كخروج جسمه من بطن أمه بارزًا إلى هذه الدار.

وهذا معنى ما يُذْكَر عن المسيح أنه قال: «يا بني إسرائيل، إنكم لن تلجوا ملكوت السَماء حتى تولدوا مرتين».

ولما كان أكثر الناس لم يولدوا هذه الولادة الثانية ولا تَصَوَّرُوْها ـ فضلاً عن أن يُصَدِّقوا بها ـ فيقول القائل: كيف يُوْلَدُ الرجل الكبير! أو كيف يُوْلَدُ القلب! لم يكن لهم إليها همة ولا عزيمة؛ إذ كيف يعزم على الشيء مَن لا يَعْرفه ولا يُصَدِّقه؟

ولكن إذا كُشِف حجاب الغفلة عن القلب صدَّق بذلك، وعَلِم أنه لم يولد قلبه بَعْدُ).

* القاعدة الخامسة:

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ (١): (محاسبة النفس نوعان:

- نوع قبل العمل.
- ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همته وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «رحم الله عبدًا وقف عند هَمِّه، فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر».

وشَرَحَ هذا بعضهم فقال:

إذا تحرَّكتْ النفس لعمل من الأعمال وهمَّ به العبد، وقف أولاً ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع؟

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»: (١/ ١٣٤ ـ ١٣٦).

فإن لم يكن مقدورًا لم يُقْدِم عليه، وإن كان مقدورًا وقف أخرى ونظر: هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله. فإن كان الثاني تركه ولم يُقْدِم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله وثوابه أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يُقْدِم عليه وإن أَفْضَى به إلى مطلوبه؛ لئلا تعتاد النفس الشرك؛ ويخفى عليها العمل لغير الله، فبقدر ما تخفُّ عليها ذلك يثْقُلُ عليها العمل لله، حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر: هل هو مُعَان عليه، وله أعوان يساعدونه ويَنْصُرُونه إذا كان العمل محتاجًا إلى ذلك أم لا؟

فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه؛ كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شَوْكه وأنصار، وإن وجده معانًا عليه فَلْيُقْدِم عليه فإنه منصور، ولا يَفُوْت النجاح إلا مَن فَوَّتَ خصلة من هذه الخصال، وإلا مع اجتماعها لا يَفُوتُه النجاح.

فهذه أربع مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل الفعل؛ فما كل ما يريد العبد فعله يكون مقدورًا له، ولا كل ما يكون مقدورًا له يكون فعله خيرًا له من تركه، ولا كل ما يكون فعله خيرًا له من تركه يفعله لله، ولا كل ما يفعله لله يكون معانًا عليه، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبيَّن له ما يُقْدِم عليه، وما يُحْجم عنه.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل؛ وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قَصَّرت فيها من حق الله؛ فلا تُوْقِعها على الوجه الذي ينْبَغي.

وحق الله في الطاعة ستة أمور...، وهي: «الإخلاص في العمل»، و«النصيحة لله فيه»، و«متابعة الرسول فيه»، و«شهود مشهد الإحسان فيه»، «وشهود مِنَّة الله عليه فيه»، و«شهود تقصيره فيه بعد ذلك كله».

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له مِن فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها؛ فيخسر ذلك الربح ويفُوتُه الظَّفَر به).

* القاعدة السادسة:

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١): (قد أكثر الناس من الكلام في الزهد، وكلٌّ أشار إلى ذَوْقِهِ، ونَطَقَ عن حاله وشاهده، فإنْ غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم، والكلام بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذَّوْق، وأقرب إلى الحجة والبرهان.

وسَمِعْتُ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول:

---

(١) «مدارج السالكين»: (٢/ ١٢، وما بعدها).

«الزهد ترك ما لا يَنْفَع في الآخرة، والورع ترك ما تَخَافُ ضرره في الآخرة»[1] وهذه العبارة من أحسن ما قيل في: «الزهد، والورع» وأجمعها).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الزهد على أربعة أقسام:

أحدها: فرض على كل مسلم، وهو الزهد في الحرام.

وهذا متى أُخِلَّ به انعقد سبب العقاب، فلابد من وجود مُسَبَّبِهِ ما لم يَنْعَقِد سبب آخر يضاده.

الثاني: زهد مستحب، وهو على درجات في الاستحباب بحسب المزهود فيه، وهو الزهد في المكروه وفضول المباحات والتَفَنُّن في الشهوات المباحة.

الثالث: زهد الداخلين في هذا الشأن وهم المشمِّرون في السير إلى الله، وهو نوعان:

أحدهما: الزهد في الدنيا جملة، وليس المراد تَخْلِيَتَها من اليد ولا إخراجها وقعوده صفرًا منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية؛ فلا يَلْتَفِتْ إليها، ولا يَدَعها تُسَاكِن قلبه وإن كانت في يده.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية: (١٠/ ٦١٥ ـ ٦٢٠).

فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك . . . والذي يُصَحِّح هذا الزهد ثلاثة أشياء:

أحدها: علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر، وأنها كما قال الله تعالى فيها: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠].

الثاني: علمه أن وراءها دارًا أعظم منها قدرًا، وأجل خطرًا وهي دار البقاء، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم؛ فلْينظر بِمَ يرجع»[1].

فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده درهم زغل قيل له: اطْرَحْهُ فلك عِوَضه مائة ألف دينار مثلاً، فألقاه من يده رجاء ذلك العوض، فالزهد فيها لكمال الرغبة فيما هو أعظم منها زهد فيها.

الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئًا كتبه له منها، وأن حرصه عليها لا يَجْلِب له ما لم يُقْض له منها، فمتى يَتَيَقَّن ذلك، وصار له به علم ويقين؛ هانَ عليه الزهد فيها . . .

---

(١) أخرجه مسلم في: «الجنة وصفة نعيمها وأهلها»: (٤/ ٥٥/ ص٢١٩٣)، وكذلك غيره، وانظر اثنين وعشرين مثلاً للدنيا سردها ابن القيم رحمه الله في كتابه الفذ: «عِدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»: ص٢٧٦ـ ٢٩٥.

فهذه الأمور الثلاثة تُسَهِّل على العبد الزهد فيها، وتُثبِّت قدمه في مقامه، والله الموفق لمن يشاء.

النوع الثاني: الزهد في نفسك.

وهو أصعب الأقسام وأشقها، وأكثر الزاهدين إنما وصلوا إليه ولم يَلِجوه، فإن الزاهد يَسْهل عليه الزهد في الحرام لسوء مَغَبَّتِهِ، وقُبْح ثمرته، وحماية لدينه، وصيانة لإيمانه، وإيثاراً للذة والنعيم على العذاب، وأَنَفَةً من مشاركة الفساق والفجرة، وحَمِيَّةً من أن يستأسر لعدوه.

ويسهل عليه الزهد في المكروهات وفضول المباحات علمه بما يفوته بإيثارها من اللذة والسرور الدائم والنعيم المقيم.

ويُسَهِّل عليه زهده في الدنيا معرفته بما وراءها، وما يطلبه من العوض التام والمطلب الأعلى.

وأما الزهد في النفس فهو ذبحها بغير سكين، وهو نوعان:

أحدهما: وسيلة وبداية، وهو أن تُميتها فلا يبقى لها عندك من القدر شيء؛ فلا تغضب لها، ولا ترضى لها، ولا تنتصر لها، ولا تنتقم لها، قد سَبَّلْتَ[١] عِرضها ليوم فقرها وفاقتها، فهي أهون عليك من أن تنتصر لها، أو تنتقم لها، أو تجيبها إذا دعتك،

---

(١) أي: جَعَلْتَهَا في سبيل الله. انظر: «مختار الصحاح»، مادة: (س ب ل).

أو تكرمها إذا عصتك، أو تغضب لها إذا ذُمَّتْ، بل هي عندك أخس مما قيل فيها، أو تُرَفِّهُهَا عما فيه حظك وفلاحك وإن كان صعبًا عليها.

وهذا وإن كان ذبحًا لها، وإماتة عن طباعها وأخلاقها؛ فهو عين حياتها وصحتها، ولا حياة لها بدون هذا البتَّة . . .

والنوع الثاني: غاية وكمال؛ وهو أن يبذلها للمحبوب جملة؛ بحيث لا يستبقي منها شيئًا، بل يزهد فيها زهد المحب في قدر خسيس من ماله، قد تعلَّقتْ رغبة محبوبه به، فهل يجد من قلبه رغبة في إمساك ذلك القدر وحبسه عن محبوبه؟ فهكذا زهد المحب الصادق في نفسه قد خرج عنها وسَلَّمها لربه، فهو يبذلها له دائمًا بِتَعَرُّض منه لقبولها.

وجميع مراتب الزهد المتقدمة مبادئ ووسائل لهذه المرتبة، ولكن لا يصح إلا بتلك المراتب.

فمن رَامَ الوصول إلى هذه المرتبة بدون ما قبلها فقد تَمَنَّ مُمْتَنِعًا[1]، كمن رام الصعود إلى أعلى المنارة بلا سُلَّم)[2].

هذا ولابد هنا أن يَلْتَفِتَ المرء إلى مزلق خطير؛ كي يحذره،

---

(١) في الأصل: (مَتَمعَّن متمن)، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) «طريق الهجرتين»: ص٢٤٠ ـ ٢٤٣.

وهو ما ذكره ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ ضمن مُنْقِصات الزهد، حيث قال[١]:

(أن يَشْهد ـ أي: المرء ـ زهده ويَلْحظه، ولا يفنى عنه بما زهده لأجله، فهذا نقص أيضًا. فالزهد كله أن تزهد في رؤية زهدك، وتغيب عنه برؤية الفضل ومطالعة المِنَّة، وأن تقف عنده فتنقطع، بل أعرض عنه جادًّا في سيرك غير ملتفت إليه، مستصغرًا لحالك بالنسبة إلى مطلوبك).

* القاعدة السابعة:

تقدَّم أن الورع هو: ترك ما يُخْشى أذاه في الآخرة.

وهناك عبارة لطيفة في حقيقة الورع لصاحب كتاب: «منازل السائرين»[٢]، وهي قوله:

(الورع: تَوَقّ مُسْتَقْصًى على حَذَر، أو تَحَرُّج على تعظيم)[٣].

---

(١) «طريق الهجرتين»: ص٢٢٠.

(٢) وهو: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، المتوفى بهراة في ٢٢ من ذي الحجة سنة ٤٨١هـ. وكتابه هذا حوى مائة منزلة من منازل السائرين إلى الحق، وقد شرحه ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ في: «مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾».

(٣) «منازل السائرين»: ص٣١.

وهذه القولة قد تناولها ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ شارحًا فقال[١]:

(يعني أن يَتَوَقَّى الحرام والشبهة وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقي؛ لأن التوقي والحذر متقاربان إلا أن التوقي فعل الجوارح، والحذر فعل القلب.

فقد يَتَوَقَّى العبد الشيء لا على وجه الحذر والخوف ولكن لأمور أخرى؛ مِن إظهار نزاهة وعزة وتَصَوُّنٍ، أو اعتراض آخر؛ كتَوَقِّي الذين لا يؤمنون بمعاد ولا جنة ولا نار ما يَتَوَقَّوْنه من الفواحش والدناءة تَصَوُّنًا عنها، ورغبة بنفوسهم من مواقعتها، وطلبًا للمحمدة، ونحو ذلك).

وقوله: (أو تحرج على تعظيم) يعني: أن الباعث على الورع عن المحارم والشبه:

- إما حذر حلول الوعيد.
- وإما تعظيم الرب جل جلاله؛ وإجلالاً له أن يُتَعَرَّض لما نَهى عنه.

فالورع عن المعصية: إما تخوف، أو تعظيم.

واكتفى بذكر التعظيم عن ذكر الحب الباعث على ترك معصية المحبوب؛ لأنه لا يكون إلا مع تعظيمه، وإلا فلو خلا القلب من

---

(١) «مدارج السالكين»: (٢/ ٢٥ـ٢٦).

تعظيمه لم تستلزم محبته ترك مخالفته؛ كمحبة الإنسان ولده وعبده وأمته، فإذا قارنه التعظيم أوجب ترك المخالفة).

فلابد إذًا من تَوَقِّي الشبهات والحذر منها، فضلاً عن المحرمات والمكروهات، ولكن (هاهنا أمر ينبغي التَّفَطُّن له؛ وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها، وتشابهت أعماله في التقوى والورع، فأما مَن يقع في انتهاك المحرَّمات الظاهرة، ثم يريد أن يتورَّع عن شيء من دقائق الشُّبَه، فإنه لا يُحْتَمل له ذلك، بل يُنْكَر عليه، كما قال ابن عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين؛ وسمعت النبي ﷺ يقول: «هما ريحانتاي من الدنيا»[1])[2]

* **القاعدة الثامنة:**

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله:

(إن العبد دائم التَّقَلُّب بين هذه الأطباق الثلاثة:

الأول: نِعَم من الله تعالى تترادف عليه، فقيدها الشكر[3].

وهو مبني على ثلاثة أركان:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٥٣)، وكذا غيره.

(٢) ما بين القوسين من كلام ابن رجب في: «جامع العلوم والحكم»: (١/ ٢٨٣).

(٣) انظر كلامًا نافعًا عن منزلة (الشكر) في: «مدارج السالكين»: (٢/ ٢٣٢-٢٤٧).

- الاعتراف بها باطنًا.
- والتحدث بها ظاهرًا.
- وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها.

فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها!

الثاني: محن من الله تعالى يبتليه بها، ففرضه فيها الصبر والتَّسَلِّي.

والصبر:

- حبس النفس عن التَّسَخُّط بالمقدور.
- وحبس اللسان عن الشَّكْوى.
- وحبس الجوارح عن المعصية؛ كاللَّطْم، وشَقِّ الثياب، ونَتْف الشعر، ونحوه.

فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام به العبد كما ينبغي انْقَلَبَتْ المِحْنَة في حقه مِنْحَة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبًا).

(الثالث: ذنوب من العبد منبعثة، فحقها الاستغفار والتوبة)[1].

---

(١) «الوابل الصيب»: ص... وانظر كلامًا مفيدًا لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حول (التوبة) في: «مدارج السالكين»: (١/ ١٩٦ ـ ٣٢٠).

* القاعدة التاسعة:

لابد للعبد من الصبر، ولا يَنْفَكّ عنه بحال من الأحوال، وقد بَيَّنَ ذلك بجلاء ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ، حيث قال[١]:

(فإنه ـ أي: العبد ـ بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدر يجري عليه اتفاقًا، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها؛ وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات.

وكل ما يَلْقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين:

أحدهما: يوافق هواه ومراده.

والآخر: يخالفه.

وهو محتاج إلى الصبر في كلٍّ منهما.

أما النوع الموافق لغرضه: فكالصحة، والسلامة، والجاه، والمال، وأنواع الملاذ المباحة.

وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدها: أن لا يَرْكَن إليها، ولا يَغْتَرّ بها، ولا تَحْمِلُه على البَطَر والأَشَر، والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

الثاني: أن لا ينهمك في نيلها، ويبالغ في استقصائها؛ فإنها

---

(١) «عدة الصابرين، وذخيرة الشاكرين»: ص٨٧ ـ ٩٤.

تنقلب إلى أضدادها، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده، وحرم الأكل والشرب والجماع.

الثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها، ولا يُضَيّعه فيسلبها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها في الحرام، فلا يُمَكّن نفسه من كل ما تريده منها؛ فإنها توقعه في الحرام، فإن احترز كل الاحتراز أَوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون.

قال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون».

وقال عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»...

وإنما كان الصبر في السراء شديدًا لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غَيْبَةِ الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشَّبَق عند غَيْبَةِ المرأة أصبر منها عند حضورها.

وأما النوع الثاني المخالف للهوى: فلا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد؛ كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط أوله باختياره؛ كالمصائب، أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه؛ فهاهنا ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يرتبط باختياره؛ وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية.

فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها؛ لأن النفس بطبعها تَنفُر عن كثير من العبودية.

ويحتاج العبد هاهنا إلى ثلاثة أحوال:

أحدها: قبل الشروع فيها؛ بتصحيح النية، والإخلاص، وتَجَنُّب دواعي الرياء والسمعة، وعقد العزم على تَوْفِيَة المَأْمُوْرِيَّة حَقَّها.

الحالة الثانية: الصبر حال العمل؛ فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط، ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النية، وعلى حضور القلب بين يدي المعبود، وأن لا ينساه في أمره، فليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا يَنْسَى الآمر حال الإتيان بأمره، بل يكون مستصحبًا لذكره في أمره.

فهذه عبادة العبيد المخلصين لله، فهو محتاج إلى الصبر على تَوْفِيَة العبادة حَقَّها بالقيام بإدائها وأركانها وواجباتها وسننها، وإلى الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها ولا يشتغل عنه بعبادته، فلا يُعَطِّله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته، ولا يُعَطِّله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل، وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فليس الشأن الإتيان بالطاعة؛ إنما الشأن في حفظها مما يُبْطلها.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعُجْب بها والتَّكَبُّر والتَّعَظُّم بها؛ فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية؛ فإن العبد يعمل سرًّا بينه وبين الله سبحانه فيكتب في ديوان السر ـ فإن تَحَدَّث به نقل إلى ديوان العلانية؛ فلا يظن أن بِسَاط الصبر انْطَوَى بالفراغ من العمل.

وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يُعِيْن عليه قطع المألوفات، ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة، وقطع العوائد، فإن العادة طبيعة خاصة فإذا انْضَافَتْ الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان؛ فلا يَقْوى باعث الدين على قهرهما.

القسم الثاني: ما لا يدخل تحت الاختيار، وليس للعبد حيلة في دفعه؛ كالمصائب التي لا صنع للعبد فيها؛ كموت مَن يعز عليه، وسرقة ماله، ومرضه، ونحو ذلك.

وهذا نوعان:

أحدهما: ما لا صنع للعبد الآدمي فيه.

والثاني: ما أصابه من جهة آدمي مثله؛ كالسب والضرب وغيرهما.

● فالنوع الأول للعبد فيه أربع مقامات:

أحدها: مقام العجز؛ وهو مقام الجزع والشكوى والسخط؛ وهذا ما لا يفعله إلا أقل الناس عقلاً ودينًا ومروءة، وهو أعظم المصيبتين.

المقام الثاني: مقام الصبر، إما لله، وإما للمروءة الإنسانية.

المقام الثالث: مقام الرضا؛ وهو أعلى من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاع، والصبر متفق على وجوبه.

المقام الرابع: مقام الشكر؛ وهو أعلى من مقام الرضا؛ فإنه يشهد البلية نعمة، فيشكر المبتلى عليها.

● وأما النوع الثاني: وهو ما أصابه من قِبَل الناس، فله فيه هذه المقامات، ويضاف إليه أربعة أخر:

أحدها: مقام العفو والصَّفْح.

الثاني: مقام سلامة القلب من إرادة التَّشَفِّي والانتقام، وفراغه من ألم مطالعة الجناية.

الثالث: مقام شهود القَدَر، وإنه وإن كان ظالمًا بإيصال هذا الأذى إليك، فالذي قَدَّره عليك، وأجراه على يد هذا الظالم ليس

بظالم، وأذى الناس مثل الحر والبرد لا حيلة في دفعه، فالمتسخط من أذى الحر والبرد غير حِازم، والكل جارٍ بالقَدَر؛ وإن اختلفت طرقه وأسبابه.

المقام الرابع: مقام الإحسان إلى المسيئ، ومقابلة إساءته بإحسانك؛ وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا يعلمه إلا الله؛ فإن فات العبد هذا المقام العالي؛ فلا يرضى لنفسه بأَخَس المقامات وأسفلها.

القسم الثالث: ما يكون وروده باختياره، فإذا تمكن لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه؛ وهذا كالعشق أوَّلُه اختيار وآخره اضطرار، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التي لا حيلة في دفعها بعد مباشرة أسبابها؛ كما لا حيلة في دفع السُّكْر بعد تناول المُسْكِر. فهذا كان فرضه الصبر عنه في أوله؛ فلما فاته بقي فرضه الصبر عليه في آخره، وأن لا يطيع داعي هواه ونفسه.

فإن قيل: فهل يثاب على الصبر في هذا القسم إذا كان عاصيًا مفرِّطًا يتعاطى أسبابه؟ وهل يكون معاقبًا على ما تَوَلَّد منه؛ وهو غير اختياري له؟

قيل: نعم؛ إذا صبر لله تعالى، وندم على ما تعاطاه من السبب المحظور أثيب على صبره؛ لأنه جهاد منه لنفسه؛ وهو عمل صالح، والله لا يُضِيع أجر من أحسن عملاً.

وأما عقوبته على ما تَوَلَّد منه فإنه يستحق العقوبة على السبب وما تولَّد منه؛ كما يعاقب السكران على ما جناه في حال سكره، فإذا كان السبب محظورًا لم يكن السكران معذورًا؛ فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تَوَلَّد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما يتولد منها؛ ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه؛ لأن اتباعهم تولد من فعله.

ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كِفْل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المُتَوَلِّد وليس من فعله، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره قبل التوبة منه بالندم عليه، وعدم إجابة دواعيه وموجباته، وحبسِ النفس عن ذلك.

فإن كان المتولد متعلقًا بالغير، فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان؛ ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى ليضلوا الناس بذلك: أن يصلحوا العمل في

نفوسهم، ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

* القاعدة العاشرة:

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله [(١)]:

(الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد، وقطع العوائق.

فالعوائد السكون إلى الدَّعة، والراحة، وما أَلِفَه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المُتَّبع؛ بل هي عندهم أعظم من الشرع؛ فإنهم يُنْكِرون على من خالف صريح الشرع؛ وربما كفروه أو بَدَّعوه وضللوه، أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم، وأماتوا لها السنن، ونصبوها أندادًا للرسول؛ يوالون عليها ويعادون؛ فالمعروف عندهم ما وافقها، والمنكر ما خالفها.

وهذه الأوضاع والرسوم قد اسْتَوْلَتْ على طوائف بني آدم من الملوك والولاة والفقهاء، والصوفية والفقراء، والمُطَّوِّعين والعامة؛

---

(١) «الفوائد»: ص١٥٣ ـ ١٥٤.

فرَبَىٰ فيها الصغير، ونشأ عليها الكبير، واتُّخِذَتْ سُنَنًا؛ بل هي أعظم عند أصحابها من السنن؛ الواقف معها محبوس، والمُتَقَيِّد بها منقطع، عَمَّ بها المُصاب، وهُجِر لأجلها السنة والكتاب، من استنصر بها فهو عند الله مخذول، ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنة رسوله فهو عند الله غير مقبول. وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله.

وأما العوائق؛ فهي أنواع المخالفات؛ ظاهرها وباطنها، فإنها تَعُوْق القلب عن سيره إلى الله، وتَقْطَع عليه طريقه؛ وهي ثلاثة أمور:

- شرك.
- وبدعه.
- ومعصية.

فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة.

وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ في أُهْبة السفر؛ ويتحقق بالسير إلى الله والدار الآخرة، فحينئذ تَظْهَر له هذه العوائق، ويَحُسُّ بتَعْوِيْقها لها بحسب قوة سيره، وتَجَرُّدِه للسفر، وإلا فما دام قاعدًا لا يظهر له كوامنها وقواطعها).

* القاعدة الحادية عشر:

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]:

(فضول المخالطة هي الداء العُضَال الجالب لكل شر، وكم سَلَبَتْ المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زَرَعَتْ من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول؛ ففي فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة.

وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام، متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يُمَيِّز بينها دخل عليه الشر:

أحدها: مَنْ مخالطته كالغذاء لا يُسْتَغْنَى عنه في اليوم والليلة، فإذا أَخَذَ حاجته منه ترك الخُلْطَة؛ ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا على الدوام.

وهذا الضَّرْب أعز من الكبريت الأحمر؛ وهم العلماء بالله وأمره، ومكايد عدوه، وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه.

فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كل الربح.

---

(١) «تفسير المعوذتين»: ص ١٣٤ ـ ١٣٨.

القسم الثاني: مَنْ مخالطته كالدواء، يُحْتاج إليه عند المرض؛ فما دُمْتَ صحيحًا فلا حاجة لك في خُلْطته، وهم من لا يُسْتَغْنَى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات، والمشاركات، والاستشارة، والعلاج للأدواء، ونحوها.

فإذا قضيتَ حاجتك من هذا الضرب بَقِيَتْ مخالطتهم من (القسم الثالث).

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وضعفه.

فمنهم مَنْ مخالطته كالداء العُضَال، والمرض المُزْمِن؛ وهو مَنْ لا تَرْبَح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلابد أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما.

فهذا إذا تَمَكَّنَتْ منك مخالطته واتَّصَلَتْ؛ فهي مرض الموت المَخُوْف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضَرْبُه عليك، فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم مَن مُخالطته حُمَّىٰ الروح؛ وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن يَنْصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها؛ بل إن تكلم فكلامه

كالعِصِيِّ تنزل على قلوب السامعين؛ مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يُحْدِث مِن فِيه كلما تَحَدَّث، ويظن أنه مِسْكٌ يَطِيْب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرَّحا العظيمة التي لا يُطَاق حملها ولا جَرُّها على الأرض، ويُذكَر عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر» . . .

والقسم الرابع: مَن مخالطته الهلك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السُّمِّ؛ فإن اتفق لآكله تِرْيَاق وإلا فأحسن الله فيه العزاء.

وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كَثَّرَهُم الله؛ وهم أهل البدع والضلالة، الصادُّون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويَبْغُوْنها عوجًا، فيجعلون البدعة سنة، والسنة بدعة، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا[1]:

(الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مُؤَانسة الطَّبْع، وشُغل الوقت.

فهذا مَضَرَّتُه أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يُفسد القلب، ويُضيع الوقت.

(١) «الفوائد»: ص٥١ ـ ٥٢.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر. فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها؛ ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها: تَزَيُّن بعضهم لبعض.

الثانية: الكلام والخُلْطَة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة يَنْقَطِع بها عن المقصود.

وبالجملة؛ فالاجتماع والخُلْطَة لقاح؛ إما للنفس الأمَّارة، وإما للقلب والنفس المُطْمَئنة.

والنتيجة مستفادة من اللِّقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته؛ وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان.

وقد جعل سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين، والطيبين للطيبات، وعكس ذلك).

* * *

الفصل الثاني

في آفات الطريق

الآفات كثيرة، غير أنها تَنْجَمِع في آفتين اثنتين:

* **الآفة الأولى: الهوى..!**

● قال الشعبي رَحِمَهُ اللهُ [١]:

(إنما سُمّي الهوى هوى؛ لأنه يَهْوي بصاحبه).

فالهوى (عن الخير صادّ، وللعقل مضادّ؛ لأنه يُنْتِج من الأخلاق قبائحها، ويُظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل سِتْر المروءة مَهْتُوْكًا، ومَدْخل الشر مسلوكًا)[٢].

وما دام الهوى والعقل متعاديان، (فالواجب على المرء: أن يكون لرأيه مُسْعِفًا، ولهواه مُسوِّفًا. فإذا اشتبه عليه أمران اجتنب أقربهما مِن هواه؛ لأن في مجانبة الهوى إصلاح السرائر، وبالعقل تَصْلُح الضمائر)[٣].

---

(١) عنه الماوردي في: «أدب الدنيا والدين»: ص٣٩.

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي: ص٣٨.

(٣) «روضة العقلاء» لابن حبان: ص١٩.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]:

(قد جعل الله اتباع الهوى مضادًّا للحق، وعدَّه قسيمًا له، كما في قوله تعالى:

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾، وقال في قسيمه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾، وقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾.

فقد حصر الأمر في شيئين: الوحي ـ وهو الشريعة ـ، والهوى، فلا ثالث لهما.

وإذا كان الأمر كذلك فهما متضادان، وحين تعيَّن الحق في الوحي توجه للهوى ضده. فاتباع الهوى مضاد للحق).

(وتأمَّل؛ فكل موضوع ذَكَرَ الله تعالى فيه الهوى فإنما جاء به في معرض الذم له ولمُتَّبعيه.

وقد رُوِي هذا المعنى عن ابن عباس أنه قال: «ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمَّه». فهذا كله واضح في أن قصد الشارع: الخروج عن اتباع الهوى).

---

(١) «الموافقات»: (٢/ ١٢١).

● والهوى يأتي العاقل من أحد وجهين:

الأول: من جهة قوة سلطانه.

والثاني: من جهة خفاء مكره.

فأما الوجه الأول: فهو أن يَقْوَىٰ سلطان الهوى بكثرة دواعيه؛ حتى تستولي عليه مغالبة الهوى والشهوات، فَيَكِلّ العقل عن دفعها، ويَضْعُف عن منعها، مع وضوح قُبْحِها في العقل المَقْهُور بها.

وحسم هذا السبب بأن يستعين المرء بالعقل على النفس النفور؛ فيشعرها ما في عواقب الهوى من شِدَّة الضرر، وقُبْح الأثر، وكثرة الإجرام، وتراكم الآثام.

فإذا انْقَادتْ النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى لم يَلْبَث الهوى أن يصير بالعقل مَدْحورًا، وبالنفس مَقْهورًا.

وأما الوجه الثاني: فهو أن يخفي الهوى بكُرِهِ؛ حتى تَتَمَوَّه أفعاله على العقل، فيتصور القبيح حسنًا، والضرر نفعًا.

وهذا يدعو إليه أحد شيئين:

● إما أن يكون للنفس مَيْل إلى ذلك الشيء، فتتصوره حسنًا لشدة ميلها، وحسمه: أن يجعل فكر قلبه حكمًا على نظر عينه؛ فإن العين رائدة الشهوة، والشهوة من دواعي الهوى، والقلب رائد الحق، والحق من دواعي العقل.

● وأما السبب الثاني: فهو اشتغال الفكر في تمييز ما اشتبه، فيطلب الراحة في اتباع ما استَسْهَل؛ حتى يظن أن ذلك أوفق أمر به، وأحمد حاليه، اغترارًا بأن الأسهل محمود، والأعسر مذموم، فلن يعدم أن يَتَورَّط بخُدَع الهوى وريبة المكر في كل مخوف حذر، ومكروه عسر[1].

※ الآفة الثانية: المعاصي...

وليُعْلَم فيها أمور:

الأول: (أن ما أصَاب العبد مِن مُصِيْبَةٍ، أوْ إدَالةِ عَدُو، أو كَسْر، وغير ذلك: فبذنوبه)[2].

الثاني: أنَّ مَا مِنْ شَرٍّ وداء في الدنيا والآخرة إلا سببه الذنوب والمعاصي[3].

الثالث: أنَّ للذنب عقوبة مُعجَّلة في الدنيا قبل الآخرة لا تتأخر عنه البَتَّة[4].

الرابع: (أن المعاصي تَزْرع أمثالها، ويُوَلِّد بعضها بعضًا)[5].

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي: ص٣٩ ـ ٤٥.

(٢) «إغاثة اللهفان» لابن القيم: (٢/ ٢٦٥).

(٣) انظر: «الداء والدواء» لابن القيم: ص٨٤.

(٤) «الداء والدواء»: ص١٠٢ ـ ١٠٣.

(٥) «الداء والدواء»: ص١٠٨.

الخامس: أنها (تُضعِف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا)[1].

السادس: أن (عقوبات الذنوب نوعان:

- شرعية.
- وقدرية.

فإذا أُقِيْمَتْ الشرعية رَفَعَتْ العقوبات القدرية أو خَفَّفَتْها.

ولا يكاد الرب تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين إلا إذا لم يَفِ أحدهما برفع مُوْجِب الذنب، ولم يكف في زوال دائه.

وإذا عُطِّلت العقوبات الشرعية استحَالَتْ قدرية، وربما كانت أشد من الشرعية، وربما كانت دونها، ولكنها تعمّ، والشرعية تخصّ، فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعًا إلا من باشر الجناية أو تَسَبَّب إليها.

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة؛ فإن المعصية إذا خَفِيَت لم تضر إلا صاحبها، وإذا أُعْلِنَتْ ضَرَّتْ الخاصة والعامة)[2].

فعقوبات السيئات (تتنوع إلى عقوبات شرعية، وعقوبات قدرية؛ وهي: إما في القلب، وإما في البدن، وإما فيهما.

---

(١) «الداء والدواء»: ص١٠٦.

(٢) «الداء والدواء»: ص٢٠٣.

وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم حشر الأجساد.

فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة؛ ولكن لجهل العبد لا يَشْعُر بما هو فيه من العقوبات؛ لأنه بمنزلة السكران والمخدَّر والنائم الذي لا يشعر بالألم)[١].

السابع: (لما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها)[٢].

الثامن: أصل الذنوب والمعاصي أمران:

- ترك مأمور.
- فعل محظور.

وهما الذنبان اللَّذَان ابتلى الله سبحانه بهما أبوي الجن والإنس.

وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى: ظاهرٍ على الجوارح، وباطن في القلوب. وباعتبار مُتَعَلَّقه إلى: حق الله، وحق خلقه.

وإن كان كل حق لخلقه فهو مُتَضَمِن لحقه، لكن سُمّيِ حقًا للخلق؛ لأنه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم.

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام: مَلَكِيَّة، وشيطانية، وسَبُعِيَّة، وبَهِيْمِيَّة. ولا تخرج عن ذلك.

---

(١) «الداء والدواء»: ص٢١١.

(٢) «الداء والدواء»: ص٢٢١.

فالذنوب الملكية: أن يتعاطى ما لا يصلح له مِن صفات الربوبية، كالعظمة . . . ويَدْخل في هذا الشرك بالرب تعالى . . .

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب. . .

وأما الشيطانية: فالتَّشَبُّه بالشيطان؛ في الحسد، والبغي . . . وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

وأما السبعية: فذنوب العداوة والغضب . . .

وأما الذنوب البهيمية؛ فمثل: الشَّرَه، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج . . . وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق؛ لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية. ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام)[١].

التاسع: تدخل المعاصي على العبد مِن أبواب أربعة، وهي[٢]:

● اللَّحَظَات؛ وهي النَّظَر، وهو أصل الحوادث التي تُصِيب الإنسان؛ (فإن النَّظرة تُوَلِّد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تَقْوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابد، ما لم يَمْنع منه مانع، وفي هذا قيل: «الصبر على غَضِّ البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده»[٣].

---

(١) «الداء والدواء»: ص٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٢) انظرها في: «الداء والدواء»: ص٢٦٦ ـ ٢٨٢.

(٣) «الداء والدواء»: ص٢٦٧ ـ ٢٦٨.

● الخَطَرَات: (وهي أضرُّ شيء على الإنسان، وتَتَولَّد من العجز والكسل، وتُولِّد التفريط والحسرة والندم، والمُتَمَنِّي لمَّا فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حوّل صورتها في قلبه، وعانقها وضمَّها إليه، فَقَنَع بوصال صورة وهمية خيالية صَوَّرها فكره، وذلك لا يجدي عليه شيئًا وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يُصَوِّر في وَهْمِهِ صورة الطعام والشراب، وهو لا يأكل ولا يشرب)(١).

● اللَّفَظَات: (حِفْظُها بأن لا يُخْرِج لفظة ضائعة؛ بأن لا يَتَكَلَّم إلا فيما يرجو فيه الرِّبْح والزيادة في دينه)(٢).

(وفي اللسان آفتان عظيمتان إن خَلُص مِن إحداهما لم يَخْلُص من الأخرى:

● آفة الكلام.

● وآفة السكوت.

وقد تكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها.

فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهِن إذا لم يخف على نفسه.

والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله.

---

(١) «الداء والدواء»: ص٢٧٠.

(٢) «الداء والدواء»: ص٢٧٦.

وأكثر الناس منحرف في كلامه وسكوته)[١].

● الخطوات: (وحِفْظها بأن لا ينْقُل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه)[٢].

(فينبغي للعبد أن يكون بوّاب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، يلازم الرِّباط على ثُغُوْرها، فمنها يَدْخُل عليه العدو، فيجوس خلال الديار، ويُتبِّر ما علا تتبيرًا)[٣].

العاشر: قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]:

(المؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تَنْدَفع بعشرة أسباب:

الأول: أن يتوب فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الثاني: أو يستغفر، فيُغْفر له.

الثالث: أو يعمل حسنات تمحوها؛ فإن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات.

الرابع: أو يدعو له إخوانه المؤمنون، ويستغفرون له حيًّا وميتًا.

---

(١) «الداء والدواء»: ص٢٨١.

(٢) «الداء والدواء»: ص٢٨٢.

(٣) من كلام لابن القيم في «الداء والدواء»: ص٢٦٦.

(٤) «مجموع الفتاوى»: (١٠/ ٤٥-٤٦).

الخامس: أو يُهْدُون له من ثواب أعمالهم ما يَنْفَعه الله به.

السادس: أو يشفع فيه نبيه محمد ﷺ.

السابع: أو يَبْتَليه الله تعالى في الدنيا بمصائب تُكفِّر عنه.

الثامن: أو يبتليه في البَرْزَخ بالصَّعْقة فيُكفّر بها عنه.

التاسع: أو يبتليه الله في عَرَصات القيامة من أهوالها بما يُكفّر عنه.

العاشر: أو يرحمه أرحم الراحمين.

فمن اخطأته هذه العشرة فلا يَلُوْمَنَّ إلا نفسه) . . .

* * *

الفصل الثالث

في الشيطان مع الإنسان

الشيطانُ عدوُّ الإنسان وقد كان سببًا فى إخراجه من الجِنَان، وهذه مسالك ومعالم تَتَعَلَّقُ بحاله مع الإنسان.

● قال أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]:

(اعلم أن الآدمي لما خُلِق رُكِّب فيه الهوى والشهوة؛ ليَجْتَلِب بذلك ما يَنْفَعُه. ووضع فيه الغضب؛ ليدفع به ما يؤذيه، وأُعْطِي العقل كالمؤدّب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب، وخلق الشيطان محرضًا له على الإسراف في اجتلابه واجتنابه.

فالواجب على العاقل أن يأخذ حِذره من هذا العدو).

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

(والمعنى في النهي عن اتباع خطواته: النهي عن طريقه وأثره فيما دعا إليه، مما هو خلاف طاعة الله تعالى ذِكْرهُ)[(٢)].

---

(١) «تلبيس إبليس»: ص٣٣.

(٢) من كلام الإمام ابن جرير الطبري في «تفسيره»: (٣/ ٣٠١).

● ولإيضاح هذا العِدَاء بجلاء، وحال الشيطان مع الناس، يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(واعلم أن القلب كالْحِصْن، وعلى ذلك الحصن سُوْر، وللسور أبواب، وفيه ثُلَم[١]، وساكنه العقل، والملائكة تتَرَدَّد إلى ذلك الحِصْن، وإلى جانبه رَبَضٌ[٢]؛ فيه الهوى والشياطين تَخْتَلِف إلى ذلك الرَّبَض من غير مانع، والحرب قائم بين أهل الحصن وأهل الربض، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس؛ والعبور من بعض الثلم.

فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وكّل بحفظه وجميع الثلم، وأن لا يَفْتُر عن الحراسة لحظة؛ فإن العدو لا يَفْتُر.

وهذا الحصن مستنير بالذّكِر، مشرق بالإيمان، وفيه مرآة صقيلة، يتراءى فيها صور كل ما يمرّ به.

فأول ما يفعل الشيطان في الربض: إكثار الدخان، فَتَسْوَدّ حيطانُ الحصن، وتصدأ المرآة.

---

(١) الثُّلم: واحدها (ثُلْمَة)، وهو الخَلَل في الحائط وغيره. انظر: «مختار الصحاح»، مادة: (ث ل م).

(٢) الرَّبَض ـ بفتحتين ـ: هو المكان الذي يُلْجأ إليه. انظر: «لسان العرب» لابن منظور: مادة: (ر ب ض).

وكمال الفِكر يَرُدّ الدخان، وصَقْل الذكر يَجْلُو المرآة.

وللعدو حملات، فتارة يحمل فيدخل الحصن؛ فَيَكِرّ عليه الحارس فيخرج، وربما دخل فعاث، وربما أقام لغفلة الحارس، وربما ركدتْ الريح الطاردة للدخان فَتَسْوَدّ حيطان الحصن، وتَصْدَأُ المرآة فيمر الشيطان ولا يدري به، وربما جُرِح الحارس لغفلته وأُسِر واستُخْدِم وأُقِيم يَسْتَنْبط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته، وربما صار كالفقيه في الشر . . .

وربما هجم الشيطان على الذكي الفَطِن ومعه عروس الهوى، قد جَلَّاها؛ فتشاغل الفطن بالنظر إليها فَيَسْتَأْسِرُه؛ وأقوى القيد الذي يوثق به الأسرى: الجهل، وأوسطه في القوى: الهوى، وأضعفه: الغفلة، وما دام درع الإيمان على المؤمن؛ فإن نَبْل العدو لا يقع في مقتل)[١].

● وليُعلم أن للشيطان على العبد المؤمن مداخل ثلاثة[٢]:

الأول: الغضب.

الثاني: الشهوة.

الثالث: الغفلة.

---

(١) «تلبيس إبليس»: ص٥٠ ـ ٥١.

(٢) انظر: «الوابل الصيب» لابن القيم: ص٦.

(ودخوله على العبد من هذه الأبواب الثلاثة، ولو احترَز العبد ما احترز؛ فلابد له من غفلة، ولابد له من شهوة، ولابد له من غضب)[١].

● فإن هو دخل في أحد تلك الأبواب، فإنه لا يزال بابن آدم حتى يَنَال منه واحدًا أو أكثر من ستة أجناس[٢] وهي:

الأول: الكفر والشرك، ومعاداة الله ورسوله.

فإذا ظفر بذلك من ابن آدم بَرَد أَنِينُه، واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه.

فإذا نال ذلك صَيَّره من جنده وعسكره، واستنابه على أمثاله وأشكاله، وصار من دعاة إبليس ونُوَّابه.

الثاني: البدعة، وينتقل إليها إبليس بعدما يَيْس من الدَّركَة الأولى، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر مُتَعَدٍّ، وهي ذنب لا يُتَاب منه.

الثالث: الكبائر.

الرابع: الصغائر.

ولا يَنْتقل الشيطان إلى هذه المرتبة حتى يَعْجز عن التي قبلها: الكبائر.

---

(١) من كلام ابن القيم في: «الوابل الصيب»: ص٦.

(٢) من كلام ابن القيم في: «تفسير المعوذتين»: ص١١٢، (بتصرف).

والصغائر إذا اجْتَمَعَتْ على العبد فربما أَهْلَكَتْه، ولا يزال الشيطان يُسَهِّل على العبد أمر الصغائر حتى يَسْتَهِين بها؛ فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه.

الخامس: الاشتغال في المباحات.

وهي إن كان لا ثواب فيها ولا عقاب، فإن عاقبتها فَوْت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها.

السادس: الانشغال بالعمل المفضول عما هو أفضل منه[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الجنس السادس[٢]:

(وقَلَّ مَن يتنبّه لهذا مِن الناس.

فإنه إذا رأى - أي: العبد - فيه داعيًا قويًّا، ومحرِّكًا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة؛ فإنه لا يكاد يقول: إن هذا الداعي من الشيطان؛ فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير؛ فيقول: هذا الداعي من الله.

وهو معذور؛ فلم يَصِل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير؛ إما لِيَتَوَصَّل بها إلى باب واحد مِن الشر، وإما ليفوِّت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأجل وأفضل.

---

(١) انظرها - أعني: الأجناس الستة - في: «تفسير المعوذتين» لابن القيم: ص١١٢ - ١١٥.

(٢) «تفسير المعوذتين» لابن القيم: ص١١٤ - ١١٥.

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول لله، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله ولرسوله، ولكتابه، ولعباده المؤمنين، خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان مِن ورثة الرسول ﷺ ونُوّابه في الأمة، وخلفائه في الأرض.

وأكثر الخلق مَحْجُوبون عن ذلك، فلا يَخْطر ذلك بقلوبهم، والله يَمُنُّ بفضله على مَن يشاء مِن عباده).

● قال ابن قيم الجوزية رحمه الله بعد سياقه لتلك الأجناس الستة[1]: (فإذا أَعْجَزَه العبد من هذه المراتب الست، وأُعْيِيَ عليه؛ سلَّط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع، والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه؛ ليشوّش عليه قلبه، ويشغل بحربه فكره، وليَمْنَع الناس من الانتفاع به.

فيَبْقَىٰ سعيه في تَسْلِيط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه، لا يَفْتُر ولا يَنِي.

فحينئذٍ يَلْبَس المؤمن لأْمَة الحرب، ولا يَضَعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسِر أو أُصِيب، فلا يزال في جهاد حتى يَلْقى الله).

---

(١) «تفسير المعوذتين»: ص١١٥.

هذا هو شرر الشيطان، وخطر تلبيسه؛ (فينبغي أن يَحْذر منه أشد الحذر، ولْيَقُل له ـ أي: العبد ـ حين أمره إياه بالسوء: إنما تريد بما تأمر به نُصْحي ببلوغي شهوتي، وكيف يَتَّضِح صواب النُّصْح للغير[1] لمن لا يَنْصَح نفسه، كيف أَثِقُ بنصيحة عدو؟ فانْصَرِفْ فما فِيَّ لقولك مَنْفَذ، فلا يبقى إلا أنه يَسْتَعِين بالنفس لأنه يَحُثّ على هواها فَلْيَسْتَحْضر العقل إلى بيت الفكر في عواقب الذنب؛ لعلَّ مَدَدَ تَوْفِيْقٍ يَبْعَث جند عزيمته فَيَهْزِم عسكر الهوى والنفس)[2].

● ومع هذا كله فهناك أمور يَعْتَصم بها العبد من الشيطان، ويَسْتَدفع بها شَرَّه، ويحترز بها منه، وهي عشرة أسباب[3]:

أحدها: الاستعاذة بالله من الشيطان، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ والسمع في الآية المراد به سمع الإجابة، لا مجرد السمع العام.

الثاني: قراءة المعوّذتين.

الثالث: قراءة آية الكرسي.

---

(١) دخول الألف واللام على (غير) فيه خلاف، انظر بحث ذلك في: «معجم الأخطاء الشائعة» للعدناني: ص١٩٠.

(٢) من كلام ابن الجوزي في: «تلبيس إبليس»: ص٣٤ ـ ٣٥.

(٣) ذكرها ابن القيم في: «تفسير المعوذتين»: ص١٢٣ ـ ١٣٠.

الرابع: قراءة سورة البقرة.

الخامس: خاتمة سورة البقرة.

فقد ثبت في «الصحيح»[١] من حديث أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ الآيتين مِن آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

السادس: أول سورة ﴿حمٓ﴾ المؤمن، إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، مع آية الكرسي.

السابع: (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير)، مائة مرَّة.

الثامن: وهو مِن أنفع الحروز من الشيطان؛ كثرة ذكر الله عز وجل[٢].

التاسع: الوضوء والصلاة.

العاشر: إمساك فضول: النظر، والكلام، والطعام، ومخالطة الناس[٣].

---

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٥٥ ـ الفتح)، ومسلم: ص٥٥٥.

(٢) أطال ابن القيم بحث هذا الحِرْز في كتابه: «الوابل الصيب»: ص١٨ ـ ٣٦، فلْيراجع.

(٣) بسط ابن القيم الكلام حول هذا الحرز في. «تفسير المعوذتين»: ص١٣٠ ـ ١٣٨، فلْينظر.

فمن استعمل ما ذُكِر مِن أسباب؛ (فقد أخذ بنصيبه من التوفيق، وسدّ على نفسه أبواب جهنم، وفتح عليها أبواب الرحمة، وانغمر ظاهره وباطنه، ويُوْشِك أن يَحْمد عند الممات عاقبة هذا الدواء، فعند الممات يَحْمَد القوم التُّقَى، وفي الصّباحَ يَحْمد القوم السُّرَى)[١].

* * *

(١) من كلام ابن القيم في: «تفسير المعوذتين»: ص١٣٨.

خاتمـــــة

لعلك أُيها السائرُ أَصْبَحْتَ ذا بَصَرٍ بعلامات الطريق وآفاته، واسْتَحْكَمتْ معرفتك بمسالك الشيطان وما هو واقٍ لك منه.

إلا أنَّ كلماتِ السلف ـ رضي الله عنهم ـ المختارة؛ تحتاج منك إلى مزيد نظر، وتقليب فِكَر، حيث إنها ذات دلالات وإشارات.

واسْأَلْ ربك الثبات والهداية، وقُلْ: (اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها).

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد.

❊ ❊ ❊

الفهرس